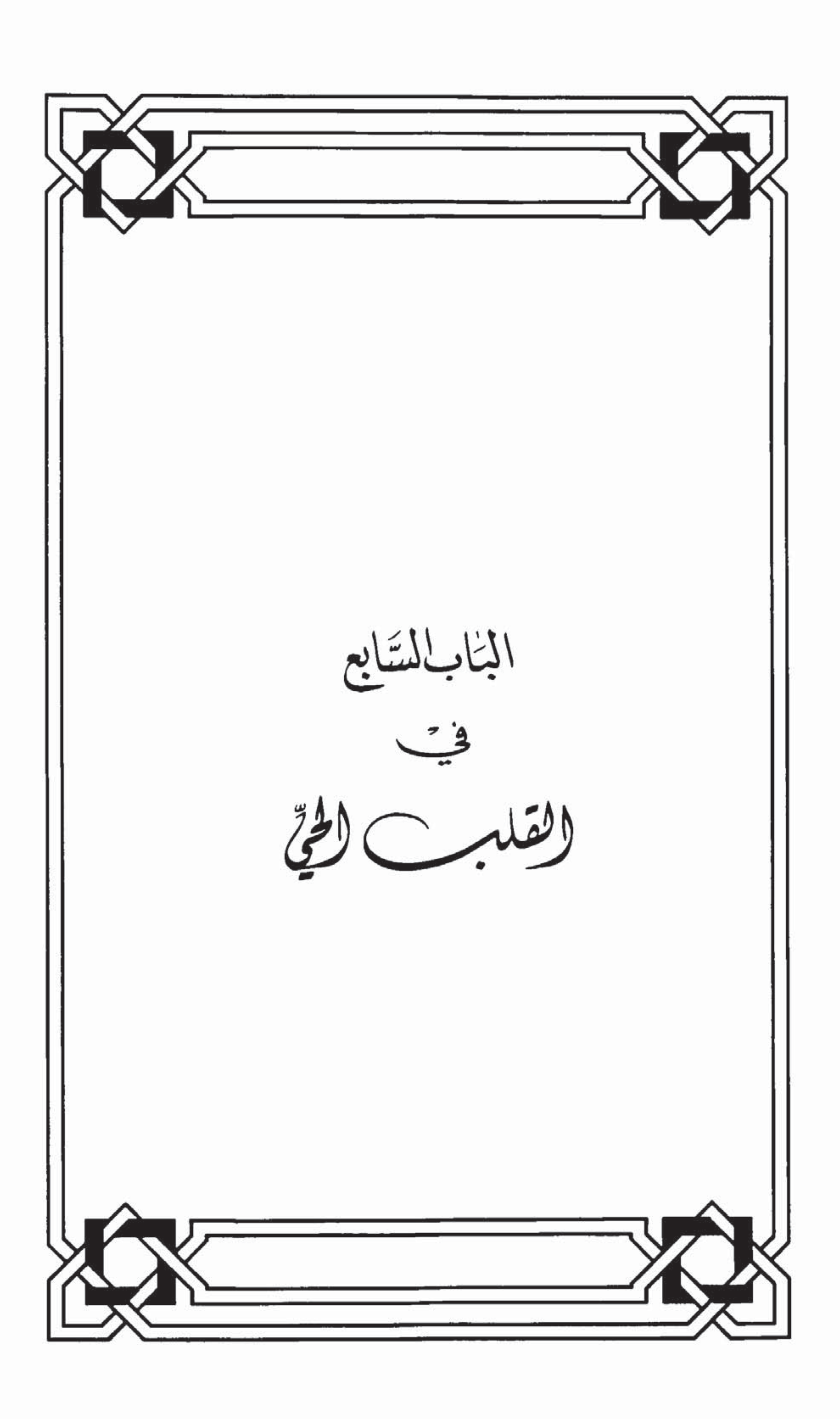


البَابُ السَّابع

فِي

القلب الحيّ

الفصل الأول

حياة القلب مادة كل خير

[الحياة والنور أصل سعادة العبد]:

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا؟﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فجمع تعالى بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح.

فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه.

فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عرضت عليه القبائح نَفَر منها بطبعة وأبغضها، ولم يلتفت إليها: بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، فآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه العزيز:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجمع بين الروح الذي تحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تَحيا به القلوب، ونور تستضيء به وتشرق،

كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي أو من كان كافراً ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حياً بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟.

فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤيده إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذي لاينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدَفِ[1] الظلام، كما قيل:

---

(١) سدف: جمع سدفة، وهي الظلمة.

ليلـــي بِـــوَجْهِــكَ مُشْــرِقٌ وَظَــلامُــه فــي النَّــاسِ سَــارِي
النَّــاسُ فــي سُــدْفِ الظَّــلا مِ، ونحــنُ فــي ضَــوْءِ النَّهــارِ

[مثلان: مائي وناري]:

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

أما الأول: فكما قال في سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء، لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه وتعالى أو الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشبَّهة بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد.

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع.

وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ فهذا المثل الناري.

ثم قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٩]، فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب (المعالم) وغيره[1].

[صلاح القلب موقوف على الأصلين]:

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين:

قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يسٓ: ٦٩ ـ ٧٠].

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب.

كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [قٓ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فأخبر سبحانه أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور قلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم.

---

(١) وانظر الوابل الصيب. طبع المكتب الإسلامي عناية صالح أحمد الشامي، ص١٢٢ وما بعدها.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر ٢٢].

ولقد أحسن القائل:

وَفِي الْجَهْلِ، قَبْلَ الْمَوْتِ، مَوْتٌ لأَهْلِهِ
وَأَجْسَامِهِم، قَبْلَ الْقُبُورِ، قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُم فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِم
وَلَيْسَ لَهُم حَتَّىٰ النُّشُورِ نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] في موضعين من كتابه[١].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، لأن حياة الأرواح والقلوب به.

وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعملِ به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

---

(١) الموضوع الثاني قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال تعالى، فجمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ ﴾ [الزمر ٢٢].

فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر.

وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه.

* * *

الفصل الثاني

حياة القلب بإدراك الحق

[في القلب قوتان: العلم والإرادة]:

ولما كان في القلب قوّتان:

- قوة العلم والتمييز.

- وقوة الإرادة والحب.

كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته.

فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل.

وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل.

فمن لم يعرف الحق فهو ضال.

ومن عرفه وآثر غيره فهو مغضوب عليه.

ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال، لأنهم أمة جهل. واليهود أخص بالغضب، لأنهم أمة عناد.

وهذه الأمة هم المنعم عليهم. ولهذا قال سفيان بن عُيينة (رحمه الله تعالى): من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

وفي (المسند) والترمذي من حديث عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون)[1].

[معرفة الحق واتباعه]:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة ١٨٦]، فجمع سبحانه وتعالى بين الاستجابة له والإيمان به.

ومنها قوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقال في وسط السورة: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى آخر الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٢٩٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل أحد في خسر، إلا من كمّل قُوّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعة الله. فهذا كماله في نفسه.

ثم كمّل غيره بوصيتِه له بذلك، وأمره إياه بِه، وملاك ذلك، وهو الصبر.

فكَمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، وخالفوه واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث هَمّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء: حارث وهمام)[1].

فالحارث: الكاسب العامل، والهمام: المريد.

فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مراداً يكون مُتَصَوَّراً لها، متميزاً عندها، فإن لم تتصور الحق

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠).

وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته ، وأرادته ولابد .

وهذا يتبين بالباب الذي بعده . فنقول :